وجوب حفظ اللسان

يجب على كل مُكلَّف أن يكفَّ لسانه ويحفظه عن كل باطل، وفي جميع الأوقات والأحوال، بيد أنه يتأكد ذلك الحفظ إبَّان الفتنة، وحلول المحنة؛ ففيها تكثر الأقاويل، وتزداد شهوة الإشاعات والمبالغات والأباطيل، وعندها تكون الآذان مستعدة لاستقبال كل ما يُقال، وفي هذا تكمن الخطورة، فربَّ كلمة أشدُّ من وقع السيف أيام الفتنة.

فلذا؛ يجب على المسلمين قاطبة أن يكفُّوا ألسنتهم عن كل كلمة تزيد من وَهَج الفتنة. وليُعلم أن اللسان من أخطر ما خلق الله في جسم الإنسان، لذا يقول تعالى منبهًا المؤمنين: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾ [الإسراء: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر: ١٤]، وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الإنفطار: ١٠-١٢]، وقوله: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الزخرف: ٨٠].

قال الإمام المحقق ابن قيم الجوزية -رحمه الله تعالى-: «ومن **العجب أن الإنسان يهون عليه التحفظ والاحتراز من أكل الحرام، والظلم، والزنى، والسرقة، وشُرب الخمر، ومن النظر المحرم وغير ذلك، ويصعب عليه التحفظ من حركة لسانه، حتى تَرى الرجل يُشار إليه**

بالدين والزهد والعبادة، وهو يتكلم بالكلمات من سخط الله، لا يُلقي لها بالًا ينزل بالكلمة الواحدة منها أبعد مما بين المشرق والمغرب، وكم ترى من رجل متورِّع عن الفواحش والظلم ولسانه يفري [١]في أعراض الأحياء والأموات، ولا يُبالي ما يقول!» [٢]اهـ.

وقد كان السلف الصالح -رحمهم الله- يحاسب أحدهم نفسه في قوله: يوم حار، ويوم بارد. ولقد رُؤِيَ بعض الأكابر من أهل العلم في النوم فسُئل عن حاله؟ فقال: أنا موقوف على كلمةٍ قلتُها؛ قلتُ: ما أحوجَ الناسَ إلى غيث!، فقيل لي: وما يدريك؟ أنا أعلم بمصلحة عبادي [٣].

وليُعلم أن أيسر حركات الجوارح حركة اللسان، وهي أضرها على العبد. وما أكثر الأحاديث والآثار الواردة في التحذير من آفات هذه الآلة الخطيرة، في كل الأوقات عمومًا، وفي زمن الفتن والمحن خصوصًا.

فمما ورد في التحذير من آفات اللسان عمومًا: سؤال معاذٍ النبيَّ -صلى الله عليه وسلم- عن العملِ الذي يدخله الجنة ويباعده من النار، فأخبره برأسه وعموده وذروة سنامه، ثم قال: «**ألا أخبرك بمِلاك** [٤]**ذلك كله؟**» قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسان نفسه، ثم قال: «**كُفَّ عليك هذا**»،

---

(١)يقال: فَرَى الجلدَ: مزَّقه. (٢)«الداء والدواء» ص(١٨٧، ١٨٨).

(٣)«المصدر نفسه»، ص(٢٨٠).

(٤)مِلاك الشيء: قِوامه، ونظامه، وما يُعتمد عليه فيه.

فقال: وإنَّا لمُؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: «**ثكلتك أُمك يا معاذ، وهل يَكُبُّ الناسَ على وجوههم -أو مناخيرهم- إلَّا حصائدُ ألسنتهم**»[١].

وقال الحافظ ابن رجب -رحمه الله تعالى- معلقًا على قول النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ رضي الله عنه: «**ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟**»، قلت: بلى. فأخذ بلسانه، فقال: «**تكف عليك هذا**»... الحديث:

«هذا يدل على أن كفَّ اللسان وضبطه وحبسه هو أصل الخير كله، وأن مَنَ مَلَك لسانه، فقد ملك أمره، وأحكمه وضبطه»[٢] اهـ.

وقد سُئل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن أكثر ما يُدخل الناسَ النارَ؟ فقال: «**الأجوفان: الفم، والفرج**»[٣].

وعن عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما- قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده...**» الحديث[٤].

---

(١) رواه الترمذي رقم (٢٦١٦)، وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه رقم (٧٩٧٣)، والإمام أحمد (٥/ ٢٣١)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» رقم (٢١١٠).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ١٤٦).

(٣) أخرجه من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- الترمذي (٤/ ٣٦٣) رقم (٢٠٠٤)، وقال: «صحيح»، وابن ماجه (٢/ ١٤١٨) رقم (٤٢٤٦)، والإمام أحمد (٢/ ٢٤٢)، وابن حبَّان (٢/ ٩٥- إحسان)، واللفظ له، وحسَّنه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢/ ١٩٤).

(٤) رواه البخاري (١/ ٥٣) رقم (١٠)، ومسلم رقم (٤٠)، وأبو داود رقم (٢٤٨١)، والنسائي (٨/ ١٠٥).

وعن علقمة بن وقاص؛ قال: مَرَّ به رجل له شرف، فقال له علقمة: إن لك رحمًا، وإن لك حقًّا، وإني رأيتك تدخل على هؤلاء الأمراء، وتتكلم عندهم بما شاء الله أن تتكلم به، وإني سمعت بلال بن الحارث المزنيَّ، صاحبَ رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «**إن أحدكُم ليتكلَّمُ بالكلمة من رضوان الله، ما يظُنُّ أن تبلُغَ ما بلغت، فيكتبُ الله -عزَّ وجلَّ- لهُ بها رضوانه إلى يوم القيامة، وإن أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله، ما يَظُنُّ أن تبلُغَ ما بَلَغَتْ، فيكتب الله -عز وجل- عليه بها سُخْطَهُ إلى يوم يلقاهُ**».

قال علقمة: فانظر، ويحك! ماذا تقول، وماذا تكلَّمُ به، فَرُبَّ كلامٍ، قد منعني أن أتكلم به، ما سمعت من بلال بن الحارث[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ -صلى الله عليه وسلم- قال: «... **وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالًا يهوي بها في نار جهنم**»[2]. وفي لفظ: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها يهوي بها في النار أبعدَ ما بين المشرق والمغرب**»[3].

وعن شَكَل بن حميد -رضي الله عنه- قال: أتيت النبيَّ صلى الله عليه وسلم، فقلت: يا رسول الله؛ عَلِّمْني تعوذًا أتعوذ به، قال: فأخذ

---

(١) رواه الإمام أحمد (١/ ٤٥، ٤٦)، والترمذي رقم (٢٣١٩)، وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه رقم (٣٩٦٩)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٢/ ٣٥٨)، رقم (٣٢٠٥).

(٢) رواه البخاري رقم (٦١١٣)، والإمام أحمد (٢/ ٣٣٤).

(٣) رواه مسلم رقم (٢٩٨٨)، والإمام أحمد (٢/ ٣٧٩).

بكفِّي، فقال: قل: «**اللهمَّ إني أعوذ بك من شر سمعي، ومن شر بصري، ومن شر لساني، ومن شر قلبي، ومن شر منيي**»(١).

وعن سفيان بن عبد الله الثقفي، قال: قلت: يا رسول الله! ما أخوفُ ما تخافُ عليَّ؟ فأخذ بلسَانِ نفسه، ثم قال: «**هذا**»(٢).

ورُوِيَ أُم حبيبة زوج النبي صلى الله عليه وسلم، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم، قال: «**كلُّ كلامِ ابنِ آدمَ عليه لا لَهُ، إلَّا أمرٌ بمعروف، أو نهيٌ عن منكر، أو ذِكرٌ لله عز وجل**»(٣).

وعن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- أن النبيَّ -صلى الله عليه وسلم- قال: «**إذا أصبحَ ابنُ آدمَ فإنَّ الأعضاء كلَّها تُكَفِّرُ اللسانَ**(٤) **فتقول: اتقِ الله فينا، فإنما نحن بك، فإن استقمتَ استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا**»(٥).

هذا وقد اطَّلع عمر بن الخطاب على أبي بكر -رضي الله عنهما- وهو يمُدُّ لسانه، فقال: ما تصنعُ يا خليفة رسول الله؟ فقال: إن هذا أوردني

---

(١) رواه الترمذي رقم (٢٧٧٥- صحيح الترمذي)، و«صحيح أبي داود» رقم (١٣٨٧).
(٢) رواه مسلم رقم (٣٨)، وابن ماجه رقم (٢٩٧٢)، والإمام أحمد (٣/ ٤١٣).
(٣) رواه الترمذي رقم (٢٤١٢)، وقال: «هذا حديث حسن غريب»، وابن ماجه رقم (٣٩٧٤)، وضعَّفه الألباني في «ضعيف ابن ماجه» رقم (٨٦١).
(٤) أي: تَذِلُّ له وتخضع، كما في «فيض القدير» (١/ ٢٨٦).
(٥) رواه الترمذي (٤/ ٦٠٥، ٦٠٦) رقم (٢٤٠٧)، والإمام أحمد (٣/ ٩٦)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» (١/ ١٢٤) رقم (٣٥١).

الموارِدَ، إنَّ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «**ليسَ شيءٌ من الجسدِ إلَّا وهو يشكُو ذَرَبَ**[(١)] **اللسانِ**»[(٢)].

وعن شقيق قال: لبَّى عبد الله -رضي الله عنه- على الصفا، ثم قال: «يا لسان! قُلْ خيرًا تغنم، اسكت تسلم، من قبل أن تندم»، قالوا: «يا أبا عبد الرحمن، هذا شيء أنت تقوله أم سمعته؟» قال: «لا، بل سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: «**أكثرُ خطايا ابنِ آدمَ في لسانه**»[(٣)].

---

(١) ذَرَبُ اللسان: سلاطته، وفساد مَنْطِقِه، من قولهم: «ذَرِبَ لسانُه» إذا كان حادَّ اللسان، لا يُبالي ما قال.

(٢) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (١/ ١٧) رقم (٥)، وقال الهيثمي في «المجمع»: «ورجاله رجال الصحيح» (١٠/ ٣٠٢)، وصححه الألباني على شرط البخاري، في «الصحيحة» (٢/ ٦٢) رقم (٥٣٥).

(٣) رواه الطبراني في «الكبير» (١٠/ ٢٤٣) رقم (١٠٤٤٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ١٠٧)، وقال المنذري: «رواته رواة الصحيح» كما في «الترغيب» (٣/ ٥٣٤)، وكذا قال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٣٠٠)، وقال الألباني في «الصحيحة» رقم (٥٣٤): «وهذا إسناد جيد، وهو على شرط مسلم». اهـ.

في الصمت السلامة

عن عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما- قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «**مَنْ صَمَتَ نجا**»[١].

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «**مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت**»[٢].

وعن معاذ بن جبل -رضي الله عنه- قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «**إنك لم تَزَلْ سالمًا ما سَكَتَّ، فإذا تكلَّمْت كُتِبَ لك أو عليك**»[٣].

وعن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- قال: «مَنْ كثُر كلامُه كثر سَقَطُه[٤]، ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه، ومن كثُرت ذنوبه كانت النار أولى به»[٥].

---

(١) رواه الترمذي (٢٥٠١)، وقال: «غريب»، وأحمد (٣/ ١٥٩)، والدارمي (٢/ ٢٩٩)، والطبراني في «الأوسط» (٣١١/٢) رقم (١٩٥٤)، وقال المنذري: «رواته ثقات» (٩/٤). ونقل المناوي عن الزين العراقي قوله: «سند الترمذي ضعيف، وهو عند الطبراني بسند جيد» اهـ. من «فيض القدير» (٦/ ١٧١). وقال الحافظ في «الفتح»: «رواته ثقات» اهـ. (١١/ ٣٠٩). وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم (٥٣٦).

(٢) رواه البخاري (١٠/ ٤٤٥)، ومسلم رقم (٤٧).

(٣) رواه الطبراني في «الكبير» (٧٤/٢٠) رقم (١٣٧)، وقال في «المجمع» «رواه الطبراني بإسنادين، ورجال أحدهما ثقات» اهـ. (٣٠٠/١٠)، وسكت عليه في «فتح الباري» (١١/ ٣٠٩).

(٤) السَّقَط هنا: الخطأ في القول والفعل.

(٥) «جامع العلوم والحكم» ص(١٦١).

وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- طويلَ الصمت، قليلَ الضحك[١] .

ووصف هندُ بنُ أبي هالة -رضي الله عنه- منطِقَ رسول الله صلى الله عليه وسلم للحسن بن علي -رضي الله عنهما- فقال: «. . . كان طويلَ السكوت، لا يتكلم في غير حاجة، يفتتح الكلامَ ويختمه باسم الله تعالى، ويتكلم بجوامع الكلم، كلامه فَصْل، لا فضولَ ولا تقصير»[٢] .

وسأل الحسين بن علي -رضي الله عنهما- أباه عن مخرجه صلى الله عليه وسلم، كيف كان يصنع فيه؟ فقال -رضي الله عنه-: «كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يَخْزِنُ[٣] لسانه إلَّا فيما يعنيه. . .»[٤] .

وقال -أيضًا-: «كان -صلى الله عليه وسلم- لا يذم أحدًا، ولا يَعيبه، ولا يطلب عورته[٥] ، ولا يتكلم إلَّا فيما رجا ثوابه»[٦] .

قال عبد الله -رضي الله عنه-: «والذي لا إله إلَّا هو، ما على وجه الأرض أحوج إلى طولِ سَجْنٍ مِن لسان»[٧] .

---

(١) رواه الإمام أحمد في «مسنده» (٥/ ٨٦، ٨٨) عن جابر بن سمرة رضي الله عنه، ورواه البيهقي بلفظ: «كان طويلَ الصمت» (٧/ ٥٢)، (١٠/ ٢٤٠)، والبغوي في «شرح السُّنَّة» (١٣/ ٢٥٦)، وحسَّنه الألباني في «المشكاة» رقم (٥٨٢٦).

(٢) «مختصر الشمائل المحمدية للترمذي» للألباني ص(٢٠).

(٣) يخزن: يحبس.

(٤) «مختصر الشمائل المحمدية للترمذي»، ص (٢٣).

(٥) أي: لا يطلب عورة أحد، وهي: ما يُستحيى منه إذا ظهر، والمعنى: لا يُظهر ما يريد الشخصُ ستره، ويخفيه عن الناس.

(٦) «مختصر الشمائل المحمدية» ص (٢٥).

(٧) أخرجه الإمام أحمد في «الزهد» (١٦٢)، ووكيع في «الزهد» رقم (٢٨٥)، وابن أبي عاصم في «الزهد» رقم (٢٣)، وغيرهم.

وعن يزيد بن أبي حبيب، قال: «إن المتكلم لينتظر الفتنة، وإن المُنْصِتَ لينتظر الرحمة»[١].

وقد قيل: «ما نَدِمَ حليمٌ ولا ساكت».

وقال الفضيل: «خصلتان تُقَسِّيان القلب: كثرةُ الكلام، وكثرةُ الأكل»[٢].

وعن سفيان، قال: «طول الصمت مِفتاحُ العبادة».

وعن محمد بن النضر الحارثي، قال: كان يُقال: «كثرة الكلام تُذْهِبُ الوقَار»[٣].

وعن أبي الذيَّال، قال: «تعلم الصمتَ كما تتعلمُ الكلامَ، فإن يكن الكلامُ يهديك؛ فإن الصمت يقيك، ولك في الصمت خَصلتان: تأخذ به عِلْمَ مَن هو أعلمُ منك، وتدفع به عنك مَن هو أجدلُ منك»[٤].

وقال إبراهيم بن الأشعث: «**سمعت الفضيل يقول: مَن استوحش مِن الوَحْدة، واستأنس بالناس، لم يسلم من الرياء، ولا حجَّ ولا جهادَ أشدُّ من حبس اللسان، وليس أحدٌ أشدَّ غمًّا ممن سجن لسانه**»[٥].

---

(١) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٥٤٩).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٤٤٠).

(٣) «الصمت» لابن أبي الدنيا رقم (٥٢)، ص (٦٨).

(٤) «جامع بيان العلم» (١/ ٥٥٠).

(٥) «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٤٣٦).

وقال إبراهيم بن أدهم: «إذا اغتممت بالسكوت، فتذكر سلامتك من زلل اللسان»[(١)].

وعن مروان بن محمد، قال: قيل لإبراهيم بن أدهم: «إن فلانًا يتعلم النحو»، فقال: «هو إلى أن يتعلمَ الصمتَ أحوجُ»[(٢)].

وعن المُعَلَّى، قال: قال مورِّق: «أمْرٌ أنا في طلبه منذ كذا وكذا سنة، لم أقدر عليه، ولستُ بتاركٍ طلبَه أبدًا»، قالوا: «وما هو يا أبا المعتمر؟»، قال: «الكفُّ عما لا يعنيني»[(٣)].

وقال رياح القيسي: قال لي عتبة الغلام: «يا رياح، إن كنتُ كلما دعتني نفسي إلى الكلام تكلمتُ، فبئس الناظرُ لها أنا، يا رياح، إن لي موقفًا يُغتبط فيه بطول الصمت عن الفضول»[(٤)].

وقال طاوس: «لساني سَبُع، إن أرسلتُه أكلني»[(٥)].

وعن شيخ من قريش قال: قيل لبعض العلماء: «إنك تُطيل الصمتَ»، فقال: «إني رأيتُ لساني سَبُعًا عقورًا، أخافُ أن أخَلِّيَ عنه فيَعْقِرني»[(٦)].

---

(١) «حلية الأولياء» (٨/ ٢٠).
(٢) «نفسه» (٨/ ١٦).
(٣) «الصمت» لابن أبي الدنيا رقم (٥٧٥).
(٤) «صفة الصفوة» (٣/ ٣٧٢).
(٥) «الإحياء» (٣/ ١٢٠).
(٦) «الصمت» رقم (٦٩٩) ص(٣٠٠).

وقال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: «والكلام أسيرك، فإذا خرج من فِيكَ صِرْتَ أنت أسيرَه، واللهُ عندَ لسانِ كلِّ قائلٍ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ١٨﴾ [ق: ١٨]»(١).

وقال بعضهم: **«رأيت مالكًا صامتًا لا يتكلم، ولا يلتفت يمينًا ولا شمالًا، إلَّا أن يكلمه إنسان فيسمع منه، ثم يجيبه بشيء يسير، فقيل له في ذلك، فقال: وهل يَكُبُّ الناسَ في جهنم إلَّا هذا؟ وأشار إلى لسانه»**(٢).

وعن أبي بكر بن عياش قال: «أدنى نفعِ السكوتِ السلامةُ، وكفى به عافية، وأدنى ضررِ المنطقِ الشهرةُ، وكفى بها بلية»(٣).

ما إن ندمت على سكوتي مرة ولقد ندمت على الكلام مرارا

وعن إبراهيم، قال: «كانوا يجلسون، فأطولهم سكوتًا أفضلُهم في أنفسهم»(٤).

وعن محارب، قال: «صحبنا القاسم بن عبد الرحمن فغلبنا بثلاث: بكثرة الصلاة، وطولِ الصمت، وسخاء النفس»(٥).

وحضر ابن المبارك يومًا عند الثوري، فلم يتكلم بحرف حتى قام، فلما قام قال الثوري لأصحابه: «وددت أني أقدر أن أكون مثلَه»(٦).

---

(١) « الجواب الكافي» ص(٢٨١).
(٢) «ترتيب المدارك» (١/ ١٧٩).
(٣) «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٥٠١).
(٤) «الحلية» (٤/ ٢٢٤)، «الزهد» لابن أبي عاصم رقم (٥٥) ص(٣٨).
(٥) «الزهد» لابن أبي عاصم رقم (٧٩) ص(٤٦).
(٦) تقدمة «الجرح والتعديل» ص(٢٦٦).

وقال عبد الله بن أبي زكريا: «عالجتُ الصمتَ ثنتي عشرةَ سنةً، فما بلغتُ منه ما كنت أرجو»(١).

وعن مالك، عن سعيد بن أبي هند، قال: «وجدت الصمت أشدَّ من الكلام»(٢).

وعن أرطاة بن المنذر قال: «تعلَّم رجل الصمتَ أربعين سنة، بحَصَاةٍ يضعها في فيه، لا ينزِعُها إلَّا عند طعام، أو شراب، أو نوم»(٣).

قال الإمام مُوَرِّقٌ العِجْلِيُّ: «تعلمت الصمت في عشر سنين، وما قلتُ شيئًا قَطُّ إذا غضبت، أندم عليه إذا زال غضبي»(٤).

الموازنة بين الصمت والكلام:

فليكن الأصل هو الصمت؛ إذ يكفي في فضل الصمت كونه أقوى وسيلة وقائية من الغِيبة وأخواتها من آفات اللسان، والسلامة لا يعدلها شيء إلَّا مَن تيقن مِن حصول الغنيمة بالكلام.

رُوِيَ عن أم حبيبة زوج النبي صلى الله عليه وسلم، قالت: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «**كلُّ كلام ابن آدمَ عليه، لا له، إلَّا أمرٌ بمعروف، أو نهيٌ عن منكر، أو ذِكْرٌ لله**»(٥).

---

(١) «الصمت» لابن أبي الدنيا رقم (٧١٣) ص(٣٠٣).
(٢) «الزهد» لابن أبي عاصم رقم (٣٦) ص (٣٠).
(٣) «الصمت» لابن أبي الدنيا رقم (٤٣٥).
(٤) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٣٥٤).
(٥) تقدم تخريجه ص (٦٦).

وقال الإمام النووي -رحمه الله تعالى-: «**اعلم أنه ينبغي لكل مكلَّف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام إلَّا كلامًا ظهرت فيه المصلحة، ومتى استوى الكلامُ وتركُه في المصلحة، فالسُّنَّة الإمساك عنه؛ لأنه قد ينجرُّ الكلامُ المباح إلى حرام أو مُكروه، وذلك كثير في العادة، والسلامة[١] لا يعدلها شيء.**

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم، قال: (**مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت**) متفق عليه[٢]، وهذا الحديث صريح في أنه ينبغي ألَّا يتكلم إلا إذا كان الكلامُ خيرًا، وهو الذي ظهرت مصلحتُه، ومتى شكَّ في ظهور المصلحة فلا يتكلم»[٣] اهـ.

وقد قال الإمام الشافعي -رحمه الله-: «إذا أراد الكلامَ فعليه أن يفكر قبل كلامه، فإن ظهرت المصلحة تكلم، وإن شكَّ لم يتكلم حتى تظهر»[٤] اهـ.

---

(١) السلامة: هي البراءة من العيوب، كما في «القاموس»، وهي من الكلمات الجوامع، فإن من سلم نجا، فهي قريبة من العافية؛ ولذا تكون دعوة الرسل عند مرور الناس على الصراط: «اللهم، سلِّم سلِّم»، وكان عبد الله بن الخيار يقول في مجلسه: «اللهم سلِّمنا، وسلِّم المؤمنين منا»، وقال الشاعر:

وقائلة لي ما لي أراك مُجَنِّبًا ... أمورًا وفيها للتجارة مربحُ
فقلت لها: كُفِّي ملامَكِ واسمعي ... فنحنُ أناسٌ بالسلامةِ نفرحُ

(٢) تقدم تخريجه ص (٦٨).

(٣) «رياض الصالحين» مع «دليل الفالحين» (٤/ ٣٤٧، ٣٤٨).

(٤) «الأذكار النووية» ص(٢٨٤).

وقال رجل لسلمان الفارسي -رضي الله عنه-: «أوصني»، فقال: «لا تتكلم!» قال: «ما يستطيع من عاش في الناس ألَّا يتكلم»، قال: «فإن تكلمتَ فتكلم بحق، أو اسكت»[(١)].

قال الشافعي -رحمه الله-:

وجدتُ سكوتي متجرًا فَلَزِمتُه   إذا لم أَجِدْ ربحًا فلستُ بخاسرِ

وقال -أيضًا-:

قالوا سكتَّ وقد خوصمتَ قلتُ لهم   إن الجوابَ لبابِ الشرِّ مفتاحُ

وقال مرةً رجل: «ما أشدَّ البرد اليوم!» فالتفت إليه المعافى بن عمران، وقال: «استدفأت الآن؟! لو سكتَّ؛ لكان خيرًا لك»[(٢)].

وقال أبو بكر بن محمد بن القاسم: كان شيخنا أبو إسحاق الشيرازي إذا أخطأ أحد بين يديه، قال: «أيُّ سكتةٍ فاتتك؟»[(٣)].

(١) «جامع العلوم والحكم» ص(١٦٢).
(٢) «السير» (٩/ ٨٤).
(٣) «السير» (١٨/ ٤٥٥).

حفظ اللسان في الفتن

قال الله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال -عزَّ وجلٍ-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗ﴾ [التوبة: ١٢٣]، فمن سُنَّة الجهاد البُداءَة بالعدو الأقرب فالأقرب، والنفس الأمَّارة بالسوء بين جنبي الإنسان هي أقرب أعدائه إليه، فليبدأ بمجاهدتها وقمعها، خصوصًا وأنها التي تأمر اللسان بالغِيبة، والنميمة، والجدل، والمراء، والكذب، والخوض في الفتن.

عن فضالة بن عبيد رضي الله عنه، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «**المجاهد من جاهد نفسه في الله عز وجل**»(١).

وعن أبي ذر رضي الله عنه، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «**أفضل الجهاد: أن تجاهد نفسك وهواك في ذات الله عز وجلَّ**»(٢).

وقال أبو حازم -رحمه الله-: «**قاتِل هواك أشدَّ مما تقاتل عدوك**»(٣).

ويتأكد وجوب حفظ اللسان وقت الفتن لما لِلِّسان من أثر في إشعالها، وقد يحسب المغرور أنه إذا كفَّ يده فقد اعتزل الفتن، ولا يدري أنه لا ينجو منها حتى يكف لسانه أيضًا، وكم من خائضٍ في الفتن متلوثٍ بها بلسانه، وهو يظن أنه ناجٍ منها، وهو من أنشط الساعين فيها،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٦/ ٢٠، ٢٢)، والترمذي (١٦٢١)، وقال: «حسن صحيح»، وابن حبَّان رقم (٤٦٢٤)، (٤٧٠٦)، والطبراني (١٨/ ٣٠٩) رقم (٧٩٧)، وقال الألباني في «الصحيحة»: «إسناده جيد» (٣/ ٤٨٤).

(٢) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٤٩). وانظر: «السلسلة الصحيحة» رقم (١٤٩٦).

(٣) «الحلية» (٣/ ٢٣١).

المُضْرِمين نارَها، ومِن ثَمَّ قال وهيب بن الورد -رحمه الله-: «وجدتُ العزلة في اللسان»[(١)].

وعن عبد الله بن المبارك قال: قال بعضهم في تفسير العزلة: «هو أن يكون مع القوم، فإن خاضوا في ذكر الله فخُض معهم، وإن خاضوا في غير ذلك فاسكت»[(٢)].

وعن حذيفة رضي الله عنه، قال: «إن الفتنة وُكِّلَتْ بثلاث: بالحادِّ النِّحْرِيرِ الذي لا يرتفع له شيء إلَّا قمعه بالسيف[(٣)]، وبالخطيب الذي يدعو إليها[(٤)]، وبالسيد[(٥)]، فأما هذان فتبطحهما لوجوههما، وأما السيد فتبحثه، حتى تبلو ما عنده»[(٦)].

وعن ابن مسعود -رضي الله عنه- أنه قال لما ذُكِرت عنده الفتن، وسُئل: أي أهلِ ذلك الزمان شر؟ قال: «كل خطيب مِسْقَعٍ[(٧)]، وكل راكب مُوضِعٍ»[(٨)].

---

(١) «الصمت» لابن أبي الدنيا رقم (٣٨).

(٢) «المصدر نفسه» رقم (٣٧).

(٣) الحادُّ: النشيط القوي القلب، أو الطائش، والنِّحْرير: العالم الحاذق في علمه. ومراده: أن مثل هذا المتهور لا رجاء له في النجاة؛ لأنه يفكر بسيفه.

(٤) وهذا كسابقه صاحب سيف، لكن سيفه لسانه.

(٥) لأن الفتنة امتحانٌ له.

(٦) «حلية الأولياء» (١/ ٢٧٤).

(٧) الخطيب المِسْقَعِ والمِصْقَع: البليغ، أو: من لا يُرْتَجُ عليه في كلامه، ولا يتتعتع. وإنما قال ابن مسعود -رضي الله عنه- ذلك؛ لأن الأول محرِّضٌ على الفتنة بلسانه، والآخر بسنانه، فاجتمع الشران: شر القول، وشر العمل.

(٨) «شرح السُّنَّة» (١٥/ ١٦)ن والراكب المُوضِع في الفتنة: المُسْرِعُ فيها.

والنصوص التالية تجسِّد لنا خطورة وَقْعِ اللسان في الفتن:

عن عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما-، أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «**تكون فتنة تَسْتَنْظِفُ**[١] **العرب، قتلاها في النار**[٢]**، اللسانُ فيها أشدُّ**[٣] **من وقع السيف**»[٤].

---

(١) تستنظف العرب؛ أي: تستوعبهم هلاكًا؛ يقال: اسْتَنْظَفتَ الشيء، إذا أخذته كلَّه، ومنه قولهم: استنظفت الخراج، ولا يقال: نظَّفْتُه. كما في «النهاية» (٥/ ٧٩) وقال القاري: «أي: تطهرهم من الأرذال وأهل الفتن» نقله في «تحفة الأحوذي» (٦/ ٤٠٢).

(٢) في النار؛ أي: سيكونون في النار أو هم حينئذٍ في النار؛ لأنهم يباشرون ما يوجب دخولهم في النار؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ [الانفطار: ١٣]، قال القاضي -رحمه الله تعالى-: المراد «بقتلاها» مَنْ قُتِل في تلك الفتنة، وإنما هم من أهل النار؛ لأنهم ما قصدوا بتلك المقاتلة والخروج إليها إعلاء دين أو دفع ظالم أو إعانة محق، وإنما كان قصدهم التباغي والتشاجر طمعًا في المال والملك.

(٣) اللسان فيها أشد؛ أي: وقعه وطعنه على تقدير مضاف، ويدل عليه رواية: «إشراف اللسان» أي: إطلاقه وإطالته أشد من وقع السيف؛ لأن السيف إذا ضُرِب به أثَّر في واحد، واللسان تضرب به في تلك الحالة ألف نسَمَة، كما في «تحفة الأحوذي» (٦/ ٤٠٣).

قال القرطبي -رحمه الله تعالى-: «قوله: «اللسان فيها أشد من وقع السيف» أي: بالكذب عند أئمة الجور، ونقل الأخبار إليهم، فربما ينشأ عن ذلك من النهب والقتل والجلد والمفاسد العظيمة أكثر مما ينشأ من وقوع الفتنة نفسها» اهـ. من «التذكرة» (٢/ ٢٤٩).

ونقل المناوي عن القاضي ابن العربي قوله: «وجه كونه أشد: أن السيف إذا ضرب ضربةً واحدةً مضت، واللسان يضرب به في تلك الحالة الواحدة ألف نَسمة، ثم هذا يحتمل أنه إخبار عَمَّا وقع من الحروب بين الصدر الأول، ويحتمل أنه سيكون، وكيفما كان فإنه من معجزاته؛ لأنه إخبار عن غيب»اهـ. من «فيض القدير» (٤/ ١٠١).

(٤) أخرجه أبو داود (٤/ ٤٦١) رقم (٤٢٦٥)، وابن ماجه (٢/ ١٣١٢) رقم (٣٩٦٧)، والإمام أحمد (١١/ ١٧٠) رقم (٦٩٨٠)، وصححه الشيخ أحمد شاكر في تحقيق «المسند» (١١/ ١٧٠)، وضعفه الألباني في «ضعيف ابن ماجه» رقم (٣١٩).

ورُوي عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «**ستكون فتنة صَمَّاءُ بَكْمَاءُ عَمْيَاءُ**[١] **من أشرف لها اسْتَشْرَفَتْ له، وإشراف اللسان فيها كوقوع السيف**»[٢].

ورُوي عن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «**إياكم والفتن، فإن اللسان فيها مثل وقع السيف**»[٣].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: بينما نحن حول رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ ذكروا الفتنة، أو ذُكِرتْ عنده، قال: «**إذا رأيتم الناسَ قد مَرِجَتْ عهودُهم، وخَفَّت أماناتُهم، وكانوا هكذا**» -وشَبَّك بين أصابعه- قال: فقمتُ إليه، فقلت: كيف أفعل عند ذلك جعلني الله فداك؟ قال: «**الزم بيتك، واملكْ عليك لسانك، وخُذْ بما تَعْرِفُ، ودَعْ ما تُنكِر، وعليك بأمر خاصةِ نفسك، ودَع عنك أمرَ العامة**»[٤].

---

(١) وصف الفتنة بأوصاف أصحابها، أي: يعمي الناس فيها، فلا يرون منها مخرجًا، ويصمون عن استماع الحق.

(٢) رواه أبو داود (٤/ ٤٦٠) رقم (٤٢٦٤)، وقال الحافظ المنذري في «مختصر سنن أبي داود»: «في إسناده عبد الرحمن بن البيلماني، ولا يُحتج بحديثه» اهـ. (٦/ ١٤٨)، وضعفه الألباني في «ضعيف أبي داود» رقم (٩١٧).

(٣) رواه ابن ماجه (٢/ ١٣١٢) رقم (٣٩٦٨)، وقال الألباني في «ضعيف ابن ماجه» رقم (٨٦٠) ص(٣١٩): «ضعيف جدًّا».

(٤) رواه الإمام أحمد (٢/ ٢١٢)، وأبو داود رقم (٤٣٤٣) واللفظ له، والحاكم (٤/ ٥٢٥)، وصححه، ووافقه الذهبي، ونقل المناوي في «الفيض» تحسين المنذري والعراقي إياه (١/ ٣٥٣)، وصححه الشيخ أحمد شاكر في «تحقيق المسند» (١١/ ١٧٢)، والألباني في «الصحيحة» رقم (٥٠٢).

ولما كان «الدفع أسهل من الرفع» و«الوقاية خيرًا من العلاج»، أثنى النبي -صلى الله عليه وسلم- على من يلزم بيته اتقاءً لآفات اللسان واحترازًا من الغيبة، والنميمة، والجدل، والسعاية وغير ذلك مما يكون وقودًا لإضرام نار الفتن.

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «... **ومن جلس في بيته لم يغتب إنسانًا كان ضامنًا على الله**»(١).

وهذا يدل على فضيلة من اعتزل مجالس الناس، ولزم بيته بنية كف شر لسانه عن إخوانه المؤمنين، كما قال -صلى الله عليه وسلم- في أفضل الأعمال بعد الجهاد: «**مؤمن في شِعْبٍ من الشِّعاب يعبد الله، ويَدَعُ الناسَ مِنْ شَرِّه**»(٢).

وعن ابن عباس -رضي الله عنهما-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- خرج عليهم وهم جُلُوس في مجلسٍ، فقال: «**ألا أخبركم بخير**

---

(١) عَجُز الحديث رواه ابن حبَّان في «صحيحه» رقم (٣٧٢)، والطبراني في «الكبير» (٢٠/ ٥٤)، والحاكم (٢/ ٩٠)، وصححه، ووافقه الذهبي، والبيهقي في «السنن» (٩/ ١٦٦، ١٦٧). وانظر: «المسند» (٥/ ٢٤١)، والبزار (١٦٤٩)، و«مجمع الزوائد» (٥/ ٢٧٧)، (١٠/ ٣٠٤).

ومعنى «ضامن على الله» أي: مضمون، على حَدِّ: «عيشة راضية» أي: مرضية، أو: ذو ضمان. قال النووي في «الأذكار»: «معنى (ضامن) صاحب الضمان، والضمان: الرعاية للشيء، كما يقال: (تامر، ولابن) أي: صاحب تمر ولبن»، وانظر: «فيض القدير» للمناوي (٣/ ٣١٩)، و«النهاية» لابن الأثير (٣/ ١٠٢).

(٢) أخرجه من حديث أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- مسلمٌ (١٨٨٨)، وابن ماجه (٣٩٧٨)، وابن حبَّان (٦٠٦)، وغيرهم.

الناس منزلًا؟»، فقلنا: بلى يا رسول الله، قال: «**رجل آخِذٌ برأس فرسه في سبيل الله حتى عُقرت أو يُقتل، فأخبركم بالذي يليه؟**»، قلنا: بلى يا رسول الله، قال: «**امرؤ معتزل في شِعْب يقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويعتزل شرور الناس**»(١). الحديث.

وقال شقيق البلخي: «اصحب الناس كما تصحب النار، خذ منفعتها، واحذر أن تُحرِقَك»(٢).

وقال عبد الله بن داود: «من أمكن الناسَ من كل ما يريدون، أضروا بدينه ودنياه»(٣).

وعن زياد بن حدير، قال: «لوددتُ أني في حَيِّزٍ من حديد، ومعي ما يُصلحني، لا أُكَلِّم الناسَ، ولا يكلموني حتى ألقى الله تبارك تعالى»(٤).

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٣٧)، والنسائي (٥/ ٨٣)، والدارمي (٢/ ٢٠١، ٢٠٢)، وابن حبَّان (٦٠٤)، قال الشيخ شعيب الأرناؤوط: «وإسناده حسن».

(٢) «صفة الصفوة» (٤/ ١٦٠).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٩/ ٣٤٩).

(٤) «حلية الأولياء» (٤/ ١٩٧)، و «الزهد» لابن أبي عاصم رقم (٦٧) ص(٤٢).

تورع السلف عن آفات اللسان في الفتن

قال إياس بن معاوية بن قُرَّة -رحمه الله تعالى-:

«كان أفضلهم عندهم -أي عند الصحابة رضي الله عنهم- أسلمهم صدورًا، وأقلهم غِيبة»[١].

وعن طارق بن شهاب، قال: كان بين خالدٍ وسعدٍ كلام، فذهب رجل يقع في خالدٍ عند سعد، فقال: «مه! إن ما بيننا لم يبلغ ديننا»[٢].

وسمع عمار بن ياسر -رضي الله عنه- رجلًا ينال من أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-، فقال له: «اسكُتْ مقبوحًا منبوحًا، فأشهد أنها زوجة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في الجنة»، وفي رواية: «اغرب مقبوحًا أتؤذي محبوبة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟!»[٣].

وقال ثابتٌ البُنانِيُّ: «إن مُطَرِّفَ بن عبد الله قال: لبثتُ في فتنة ابن الزبير تسعًا أو سبعًا ما أُخْبِرتُ فيها بخبر، ولا استخبرت فيها عن خبر».

وعن شقيق، قال: قال لي شريح: «ما أخبرت ولا استخبرت منذ كانت الفتنة»، قلت: «لو كنتُ مثلك، لسرني أن أكون قد مت»، قال:

(١) «حلية الأولياء» (٣/ ١٢٥)، بلفظ: «عندي -يعني الماضين»، ولعل ما أثبتناه أقرب.
(٢) «المرجع نفسه» (١/ ٩٤).
(٣) أخرجه ابن عساكر كما في «الكنز» (٣/١١٦)، وابن سعد (٨/٦٥).

«فكيف بما في صدري، تلتقي الفئتان: إحداهما أحبُّ إليَّ من الأخرى؟»[١].

وقال الإمام الزهري -رحمه الله تعالى-: (حدَّثني عروةُ أن المِسورَ بن مَخْرَمة أخبره أنه وفد على معاويةَ، فقضى حاجتَه، ثم خلا به، فقال: «يا مسورُ، ما فعل طعنُك على الأئمة؟»، قال: «دعنا من هذا وأحسِن»، قال: «لا والله! لتكلِّمنِّي بذاتِ نفسِك بالذي تعيبُ عليَّ» قال مسور: «فلم أترك شيئًا أعيبه عليه إلَّا بيَّنتُ له» قال: «لا أبرأ من الذنب، فهل تعُدُّ لنا يا مسورُ ما نلي من الإصلاح في أمر العامَّة، فإن الحسنة بعشر أمثالها، أم تعدُّ الذنوبَ وتتركُ المحاسنَ؟» قال: «ما تُذكَر إلَّا الذنوب»، قال معاوية: «فإنَّا نعترف لله بكل ذنبٍ أذنبناه، فهل لك يا مسورُ ذنوبٌ في خاصتك تخشى بأن تهلك إن لم تُغفر؟»، قال: «نعم»، قال: «فما يجعلك اللهُ برجاء المغفرةِ أحقَّ مني، فوالله ما ألي من الإصلاح أكثر مِما تلي، ولكن واللهِ لا أُخيَّر بين أمرين، بين الله وبين غيره، إلَّا اخترتُ اللهَ على ما سواه، وإنِّي على دينٍ يُقبل فيه العمل، ويُجزى فيه بالحسنات، ويجزى فيه بالذنوب إلَّا أن يعفوَ الله عنها»، قال: «فَخَصَمَني» قال عروة: «فلم أسمع المسورَ ذكر معاويةَ إلَّا صلَّى عليه»)[٢].

عن أبي راشد، قال: (جاء رجل من أهل البصرة إلى عبيد الله بن عمر، فقال: إني رسولُ إخوانك من أهل البصرة إليك، فإنهم يُقرءونك

---

(١) «حلية الأولياء» (٤/ ١٣٣).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٣/ ١٥٠، ١٥١) (٣٩١، ٣٩٢).

السلام، ويسألونك عن أمر هذين الرجلين: علي وعثمان، وما قولك فيهما؟ فقال: «هل غير؟» قال: «لا»، قال: «جَهِّزوا الرجل»، فلما فُرِغ من جَهازه قال: «اقرأ عليهم السلام، وأخبرهم أن قولي فيهم: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٣٤﴾ [البقرة: ١٣٤]»)[١].

وعن شريك قال: سألت إبراهيم بن أدهم عما كان بين علي ومعاوية، فبكى، فندمت على سؤالي إياه، فرفع رأسه، فقال: «إنه من عرف نفسه اشتغل بنفسه، ومن عرف ربه اشتغل بربه عن غيره»[٢].

وقال الشافعي: قيل لعمر بن عبد العزيز: «ما تقول في أهل صِفِّين؟» قال: «تلك دماء طَهَّر الله يدي منها، فلا أحب أن أخضب لساني بها»[٣].

وقال الرياشي -رحمه الله تعالى-:

لَعمرُكَ إن في ذنبي لَشُغُلًا ... لنفسي عن ذنوب بني أمَيَّهْ
على ربي حسابُهمُ إليه ... تناهى عِلمُ ذلك لا إليَّهْ
وليس بضائري ما قد أَتَوْه ... إذا ما اللهُ أصلحَ ما لديَّهْ[٤]

وعن الهيثم بن عبيد الصيدلاني، قال: سمع ابن سيرين رجلًا يَسُبُّ الحجاج، فقال: «مه أيها الرجل! إنك لو وافيت الآخرة كان أصغر ذنب

(١) «العزلة» للخطابي ص(٤١).
(٢) «حلية الأولياء» (٨/ ١٥).
(٣) «العزلة» للخطابي ص(٤١).
(٤) «الأذكار النووية» ص(٢٨٨).

عمِلتَه قَطُّ أعظمَ عليك من أعظم ذنبٍ عمله الحجاجُ، واعلم أن الله -عز وجل- حَكَمٌ عدلٌ، إن أخذ من الحجاج لمن ظلمه شيئًا فشيئًا، أخذ للحجاج مِمَّن ظلمه، فلا تشغلنَّ نفسَك بسبِّ أحدٍ»[(١)].

وكان عبد الله بن الخيار يقول في مجلسه: «اللهمَّ سلِّمنا، وسلِّم المؤمنين مِنَّا»[(٢)].

(١) «شعب الإيمان» (٥/ ٢٨٧) رقم (٦٦٨١).
(٢) «تذكرة الحُفَّاظ» (١/ ١٣٩).

رُبَّ قولٍ يسِيل مِنه دَمٌ

لا ينحصر شؤم إطلاق اللسان في الفتن في ولائم السوء التي يسودها الجدل والمراء والغيبة والنميمة، لكنه يتعداها إلى آثار خطيرة في واقع الأمة، فالشر مبدؤه شرارة، «ومعظم النار مِن مُستصغَر الشرر».

– وكثير من الفتن تُبْذَر بذرتها في مجالس الغيبة والوقيعة، ولا يتوقع أصحابها أن تبلغ ما بلغت، ثم تُلَقَّحُ بالنجوى، وتُنْتَجُ بالشكوى، وإذا بها تشتعل وتضطرم رويدًا رويدًا حتى يستعصي إطفاؤها حتى على الذين أوقدوا شرارتها، فهؤلاء الغيابون أكلة لحوم البشر هم من الذين وصفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «**إن من الناس مفاتيحَ للخير مغاليقَ للشر، وإن من الناس مفاتيحَ للشر، مغاليقَ للخير، فطوبى لمن جعل اللهُ مفاتيحَ الخيرِ على يديه، وويل لمن جعل اللهُ مفاتيحَ الشر على يديه**»[1].

خَلِّ جنبيك لرامِ   وامضِ عنه بسلامِ
مُتْ بداءِ الصمتِ   خيرٌ لك من داء الكلامِ
رُبَّما استُفْتِحَ بالقو   لِ مغاليقُ الحِمامِ
رُبَّ قولٍ ساقَ آجالَ   فِئامٍ وفِئامِ
إنما السالمُ مَنْ   ألجَمَ فاهُ بِلِجامِ

---

(١) أخرجه ابن ماجه رقم (٢٣٧)، وابن أبي عاصم في «السُّنَّة» رقم (٢٩٧)، وحسَّنه الألباني بطرقه في «الصحيحة» رقم (١٣٣٢).

- وهاك هذه الشواهدَ التاريخيةَ التي تدل على أنه «رُبَّ قولٍ يسيلُ منه دمٌ»[١].

قال أبو معبد عبد الله بن عَكيم الجهني -تابعي جليل- في خطبة له: «لا أُعين على دم خليفة أبدًا بعد عثمان»، فقال رجل متعجبًا: «يا أبا معبد، أَوَأَعنتَ على دمه؟»، فقال أبو معبد: «إني لأرى ذكر مساوئ الرجل عونًا على دمه[٢]»[٣].

ولقد قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «**إن العبدَ ليتكلمُ بالكلمة من سخط الله لا يُلقي لها بالًا يهوي بها في جهنم**»[٤].

فهؤلاء الساعون بالوشاية والنميمة، أَحْصَوا اجتهادات أمير المؤمنين عثمان بن عفان -رضي الله عنه- وصوَّروها بحسب ما تتخيل عقولهم الضعيفة، وقلوبهم المريضة، فاتخذوا ذلك سُلَّمًا إلى الفتنة[٥].

حين علم حذيفة -رضي الله عنه- بمقتل عثمان بن عفان -رضي الله عنه- قال: «اللهمَّ العن قَتَلَتَهُ وشُتَّامَه، اللهمَّ إنَّا كنا نعاتبه ويعاتبنا، فاتخذوا ذلك سُلَّمًا إلى الفتنة، اللهمَّ لا تُمِتْهم إلَّا بالسيوف»[٦].

---

(١) انظر: «المنهج المسلوك في سياسة الملوك» ص(٤٤٧).

(٢) أو عونًا على سجنه وتشريده، وشلله عن دعوته.

(٣) «الطبقات» لابن سعد (٣/ ٨٠).

(٤) رواه من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- البخاري رقم (٦٤٧٨)، ومسلمٌ رقم (٢٩٨٨).

(٥) وقد جمعها الإمام ابن العربي، وفنَّدها في كتابه المبارك «العواصم من القواصم»، فانظره ص(٧٦-١٥٠) ط. دار الكتب السلفية، ١٤٠٥هـ.

(٦) «الكامل» لابن الأثير (٣/ ٥١).

قال عبد الواحد بن زيد للحسن البصري -وكلاهما من التابعين-: «يا أبا سعيد، أخبرني عن رجل لم يشهد فتنة ابن المهلب بن أبي صفرة[١] إلَّا أنه عاون بلسانه، ورضي بقلبه»، فقال الحسن: «يابن أخي كم يد عقرت الناقة؟»، قلت: «يد واحدة» قال: «أليس قد هلك القوم جميعًا برضاهم وتماليهم؟»[٢] .

ولعل النزعة الخارجية التي تُطل برأسها من وقت إلى آخر لتبعث الحياة في فِكْر الخوارج الأولين وسلوكهم هي المسئولة عن كثير من التعديات على الحرمات، فقد قال -صلى الله عليه وسلم- في شأن الخوارج: «**يقتلون أهل الإسلام، ويَدَعون أهل الأوثان**»[٣] ، وهذه العلامة هي التي جعلت أحد العلماء، وقد وقع مرة في يد بعض الخوارج، فسألوه عن هُويته، فقال: «مشرك مستجير، يريد أن يسمع كلام الله»، وهنا قالوا له: «حقٌّ علينا أن نجيرك، ونُبْلِغَكَ مأمنك»، وتلوا قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ [التوبة: ٦] ، بهذه الكلمات نجا «مشرك مستجير»، ولو قال لهم: «مسلم» لقطعوا رأسه[٤] .

---

(١) وكان قد انشقَّ عن الدولة الإسلامية معتمدًا على وجاهة أبيه، وكان أبوه -رحمه الله تعالى- مبيدًا للخوارج.

(٢) «الزهد» للإمام أحمد ص(٢٨٩).

(٣) رواه الإمام أحمد (٣/ ٦٨)، والبخاري رقم (٧٤٣٢) (١٣/ ٤١٥)، ومسلم، وأبو داود، والنسائي.

(٤) وانظر صورًا مماثلة من تهور الخوارج وانتهاكهم حرمات المسلمين مع تورعهم مع الكافرين في «تلبيس إبليس» لابن الجوزي ص(١٢٨، ١٢٩).

وتكفير المسلم مفتاح استباحة دمه:

- فقد اتُّهِمَ القاضي عياض -رحمه الله تعالى- بأنه «يهودي»؛ لأنه كان يلزم بيته للتأليف نهار السبت.

- وهذا الشيخ علاء الدين العطار تلميذ الإمام النووي -رحمهما الله- مع أنه كان شيخ زمانه- كان يمشي متأبطًا وثيقة من أحد القضاة بصحة إيمانه، وبراءته من كل ما يكفره، مخافةَ أن يصادفه أفَّاك في مجلس.

- وفي القصة التالية معتبر ومزدجر وتذكرة بأن «من الغيبة ما قتل»:

عن رشيد الخبَّاز قال: خرجت مع مولاي إلى مكة، فجاورنا، فلما كان ذات يوم، جاء إنسان فقال لسفيان: «يا أبا عبد الله، قَدِم اليوم حسنٌ وعليٌ ابنا صالح»، قال: «وأين هما؟» قال: «في الطواف»، قال: «إذا مَرَّا، فأرنيهما»، فمرَّ أحدهما، فقلت: «هذا عليٌّ»، ومرَّ الآخر، فقلت: «هذا حَسَنٌ»، فقال: «أما الأول فصاحِب آخِرة، وأما الآخَرُ فصاحب سيف، لا يملأ جوفَه شيء»، قال: فيقوم إليه رجل ممن كان معنا، فأخبر عليًّا، ثم مضى مولاي إلى علي يسلم عليه، وجاء سفيان يُسلم عليه، فقال له علي: «يا أبا عبد الله، ما حملك على أن ذكرتَ أخي أمسِ بما ذكرته؟ ما يُؤمنك أن تبلغ هذه الكلمة ابن أبي جعفر، فيبعث إليه، فيقتله؟» قال: فنظرت إلى سفيان، وهو يقول: «أستغفر الله» وجادتا عيناه[١].

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٣٦٦).

- وعن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، قال: كنا مع رجاء بن حَيْوَة فتذاكرنا شكر النعم، فقال: «ما أحدٌ يقوم بشكر نِعمة»؛ وخَلْفَنا رجلٌ على رأسه كِساء، فقال: «ولا أميرُ المؤمنين؟»، فقلنا: «وما ذِكْرُ أمير المؤمنين هنا؟! وإنما هو رجلٌ مِن الناس»، قال: فغفلنا عنه، فالتفتَ رجاءٌ فلم يره، فقال: «أُتيتم من صاحب الكساء، فإن دُعيتم، فاستُحْلِفتم، فاحلفوا»؛ قال: فما علمنا إلّا بحَرَسِي قد أقبل عليه[1]، قال: «هِيه يا رجاء، يُذكَر أمير المؤمنين، فلا تحتج له؟!»، قال: فقلت: «وما ذاك يا أمير المؤمنين؟»، قال: «ذكرتم شكر النعم، فقلتم: ما أحد يقوم بشكر نعمة، قيل لكم: ولا أمير المؤمنين؟، فقلتَ: أمير المؤمنين رجل من الناس!»، فقلت: «لم يكن ذلك»؛ قال: «آلله؟»، قلت: «آلله»، قال: فأمر بذلك الرجل الساعي، فضُرب سبعين سوطًا، فخرجت وهو متلوِّث بدمه، فقال: «هذا وأنت رجاءُ بنُ حَيْوة؟»، قلت: «سبعين سوطًا في ظهرك خير من دم مؤمن»، قال ابن جابر: فكان رجاء بن حيوة بعد ذلك إذا جلس في مجلس يقول، ويتلفَّت: «احذروا صاحب الكساء»[2].

قال الشاعر:

يموت الفتى من عثرةٍ بلسانه ... وليس يموت المرء من عثرة الرِّجلِ
فعثرته بلسانه تُذْهب رأسه ... وعثرته برجله تبرا على مهل

آخر:

وجُرح السيف تُدْمِلُه فيبرا ... وجرحُ الدهر ما جَرَحَ اللسانُ

---

(١) يبدو أن في هذا الموضع سقطًا، ولعله: «فاصطحبه، وأدخله على أمير المؤمنين».
(٢) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٥٦١).

جراحاتُ الطِّعان لها التئامٌ ... ولا يلتامُ ما جَرَح اللسانُ[١]

آخر:

وجرح السيف يأسوه المُداوي ... وجرحُ القولِ طولَ الدهرِ دامي[٢]

---

(١) «المحاسن والمساوئ» للبيهقي ص(٣٨١).

(٢) «المصدر نفسه» ص(٣٨١).